الفصل الثالث

تنظيرانت سياسية

- **إدموند بيرك (١٧٢٩- ١٧٩٧م)**
- **توماس پين ونظريته الإنسانية(١٧٣٧- ١٨٠٩م)**
- **النفعية والنفعيون**
- **وليام جودوين(١٧٥٦- ١٨٣٦ م)**
- **الرومانسية**
- **النظرية السياسية الكاملة عند بوزانكت؟(١٨٤٨- ١٩٢٣ م)**

▲محصلة

إدموند بيرك(١٦٢٩- ١٧٩٦م):

يمثل 'إدموند بيرك' Edmond Burk فى نظرنا العقلية البريطانية التى تعرفنا ونتعرف عليها.

ومن الوجهة النظرية البحتة "فإن السياسات عند بيرك لا تتوافق مع العقل بتفكيره المجرد وإنما تتوافق دائما مع الطبيعة البشرية التى تستهدف دائما (فى رأيه) منفعتها ومصالحها وهى لا تهتم بالصواب والخطأ ولا بالحقيقة أو الزيف وإنما تهتم بالخير والشر" باعتباره أن الخير هو المنفعة والشر هو نقيضها؛ وبهذا ورغم مذاقه الماكيافيللى الحوشى وبسبب تغير المناخ السياسى الأوروبى أرهص بيرك للمذهب النفعى لدى 'بنتام' و 'مل' وغيرهما؛ رغم تقاطع المذهبين مع حراك إنسانى ثورى عند بين إبان الثورتين: الفرنسية والأمريكية.

لم يعتبر بيرك الحرية حقا طبيعيا من حقوق الإنسان ورفض الحرية الفردية قائلا بأن الإنسان مهيأ للحرية المدنية Civil Liberty بواسطة ضبط النفس وحب العدل واتجاهه إلى الفهم ، ورأى أن المجتمع يجب أن يمتلك قوة مسيطرة عليا يرهبها الأفراد ويحترمونها [١] .

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.. ص٢٣٢، ٢٣١

obeikandl.com

وقد خالف بيرك عالم الاجتماع 'چون لوك' فى قوله بتساوى الناس فى حق الملكية فقرر هو أنها تختلف طبقا للمكانة والمركز والمميزات المختلفة والدور الذى يلعبه فى المجتمع ؛ والنتيجة عنده أن عدم المساواة الاقتصادية تلك تبرر عدم المساواة السياسية أيضا.

وحقا كان بيرك ينظر فى الأمور بالمنظار الإنجليزى فى أفقه الاستعمارى فى وقته؛ ولكن حجية تبريرية أخرى واتته من الجوار البريطانى حيث هزت أعمال القتل والاستبداد التى صاحبت الثورة الفرنسية المجتمع الإنجليزى الذى بدا محافظا أو متريثا ما أغدقت عليه المستعمرات . وكان مجلس لورداته House of Lords يتكون من المتميزين أصلا وتملكا كما كان مجلس عمومه House of Commons يتكون من ملاك الأراضى الكبار.

وأما تمثيل الجماهير المعدمة عند بيرك فقد دخل نظريا فيما سماه "تمثيل الفضيلة" Virtual Representation ويقول بأنه قد يكون أعظم من النوعين الآخرين فى بعض الأحوال.

وفى رسالته "أفكار وتفصيلات عن المجتمع" Thoughts and Details on Society عد العمال مجرد سلعة فى عالم التجارة تخضع للعرض والطلب ورد فقر العمال إلى كثرة عددهم ؛ وأما طبقة الأغنياء فهى تزودهم بما يحتاچون إليه من خلال ما يقومون به من مشروعات وتجارة وبنوك توفر لهم فرص العمل فيها .

وعلى الرغم من أن بيرك هاجم الميتافيزيقا والأفكار المجردة ورأى أن السياسة لا ترتبط إلا بالظروف وبالتاريخ وبالخبرة وبالفطنة وبالتجريب شأنها شأن العلوم التجريبية جميعا؛ 'إلا أنه رأى "ضرورة المحافظة على الدين والتمسك به" ورأى بعض نقاده أنه "رائد من رواد الحركة الإنسانية المسيحية فى السياسات .. لأنه رأى العالم وطبيعة الإنسان من

خلال الكتاب المقدس وتبديات المسيحية" [١]؛ وإن كان منحاه هذا فى تجنيد الدين للسياسة قد ناقض كلا من منحى المصلحين الدينيين البروتستانت والعلمانيين القوميين جميعا؛ مما يؤكد أن بيرك قد كان يترجم عن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى انجلترا وعن شعوره العدائى ضد الثورة الفرنسية.

وهو شعور غطى عنده على دوافع هذه الثورة وما سبقها بل أدى إليها من فساد وبطالة واستبداد وإسراف كما غطى عنده على ما تطورت إليه الثورة بعد الفورة الأولى من ثبات ونظام وما صدر عنها من فكر علمى وعملى فضلا عما نادت به من مبادئ العدالة والحرية والمساواة تلك التى تركت أثرها فى كل مكان؛ بل يرى بعض الباحثين أن بيرك تناسى ذلك عن عمد كما قلب القضية فعلل دعوته لتدخل انجلترا وغيرها للقضاء على الثورة الفرنسية بنزعات التطرف والعنف فيها بينما كانت دعاوى التدخل هذه هى نفسها من دواعى العنف والالتجاء إلى الاستبداد العسكرى الذى أدى إلى ظهور نابليون فى فرنسا [٢] .

وعلى الرغم من أن بيرك قد ولد من أب بروتستنتى وأم كاثولوكية [٣] ؛ إلا أنه على ما يبدو قد اصطنع أسلوب التعصب للدين بوصفه المنتقد فى المجتمع الأوروبى ولم يسعه من أمر العقل الفرنسى ما وسع المصريين المتمسكين بدينهم المتقبلين للبيرالية كما سيلى.

فبالإضافة إلى ما ذكرنا وغيره مما هوَّل به بيرك على الثورة الفرنسية "تطرف إلى حد دعوته انجلترا إلى الدخول فى حرب ضد الثورة الفرنسية لإنقاذ الشعب الفرنسى" فى زعمه. وإنما نقم على الثورة ما وصفه بـ "الديموقراطية اليعقوبية" Jacobin Democracy ورآها تمثل "طغيانا جماعيا" مستبدلا "بالطغيان الفردى".

---

[١] على عبد المعطى محمج/ الفكر السياسى الغربى.. ص ٣٣٤
[٢] على عبد المعطى محمج/ الفكر السياسى الغربى.. ص ٣٣٣
[٣] على عبد المعطى محمج/ الفكر السياسى الغربى.. ص ٣٢٦

ووصفه للديموقراطية الفرنسية بأنه يعقوبية مبعثه أن إيمان الثوار لم يكن "يقول بالتثليث" كما أن "اليهود لا تقول بالتثليث" فهم موافقون لليهود والمسلمين فى التوحيد ولكن "يؤمنون بالكائن الأعظم إلها لا وصاية له على الناس ولا يثقلهم بوحى أو إلهام وإنما يكلهم إلى أنفسهم يصرفون سياستهم واقتصادهم وشئون اجتماعهم كما تقضى عقولهم به وترتضيه أفكارهم" [١] .

يقول الدكتور حلمى مرزوق: "وهذا هو الإيمان العقلى الذى ورثه نابليون عن فلاسفة القرن التاسع عشر.." (وقد) وجد "الجبرتى (قد) رد هذه الفلسفة جميعا إلى التحسين والتقبيح العقليين.. فى تراث الإسلام وفلسفة المسلمين" [٢] . أى أن نابليون فى واقع الأمر ليس يعقوبيا خلافا لمقتضى اصطلاح بيرك كما أنه ليس مسيحيا ولا مسلما بالمعنى الخاص للإسلام ولكنه على أية حال ليس ملحدا كما لم يكن الثوار ملحدين بعكس تشنيع بيرك عليهم.

وقد كانت ألوهية الثوار الفرنسيين ألوهية القرن الثامن عشر أو عصر الاستنارة. ألوهية فلسفية أطلقوا عليها اسم "الدييزم" Diesm فى وصف مرزوق عن 'بول هازرد' لها [٣] . أو ألوهية تكاد تكون حنيفية لولا إنكار الوحى والإلهام فى "الدييزم" حقا كان الحنفاء مؤمنين أخلاقيين وصلوا إلى نقائهم هذا فى تجربة إبراهيم مثلا عن طريق التأمل فى ظهور الشمس والقمر وأفولهما [٤] ولكنهم كانوا أصحاب ألوهية ذات الوحى والإلهام :"ثييزم" Theism بتعبير الغربيين وهى التى قابل الثوار بينها وبين الـ "دييزم" .

والواقع أن بيرك والأسلوب المحافظ فى انجلترا بصفة عامة كان يمكن أن يعتبر الثورة الفرنسية تخص فرنسا ولكنه رآها تكاد تكون شرارة أخرى من الثورة الأمريكية ومن ثم عنت عنده بلا ريب تعارضا جديدا

---

[١] حلمى على مرزوق/ دراسات فى الأدب والنقد..ص ٧٨
[٢] حلمى على مرزوق/ دراسات فى الأدب والنقد..ص ٧٩
[٣] حلمى على مرزوق/ دراسات فى الأدب والنقد..ص ٧٧
[٤] سورة الأنعام، ى ٧٦-٧٨

مع مصالح انجلترا فى مستعمراتها ؛ ولذلك وقفت انجلترا لفرنسا بالمرصاد فى أوروبا وتتبع أسطولها الأسطول الفرنى فى البحر الأبيض وانتهز منه غرة فى أبى قير وأسهم فى دعم أحمد باشا الجزار لصد الغزو الفرنسى لعكا بشىء من سَلَبِ الحملة الفرنسية نفسها. [1]

وإلى الأسلوب السياسى البريطانى نعود فى الباب الثالث.

توماس پين (١٧٣٧- ١٨٠٩م) ونظريته الإنسانية:

لكننا وجدنا "توماس پين" Thomas Paine 1737- 1809 رغم انجليزيته يشذ عن هذه الرجعية . ورغم نعت أسلوبه الحماسى بالغوغائية فإنه كان واضحا خلوا من الطبقية التى اتسم بها إدموند بيرك ، ومن التناقض والفوضوية الذين وسمت بهما نظرية جدوين السياسية ؛ فكان مثلا للذوقية الشعورية التى سبق إليها "كالفن" فى الإصلاح الدينى.

وكذلك مثل پين المرحلة الناضجة لفلسفات العقد الاجتماعى عند "لوك" (١٧٠٤م) ، و"منتسكيو" (١٧٥٥م) و "روسو" (١٧٧٨م) . وقد تضمن فكره ونضاله العملى السياسى والتقنى جميعه خير ما جاءت الرومنسية بعد تتطلع إليه ووجد فلسفته "(لكاملة) -إن لم نقل (التامة) مسك ختام كما ذكرت- عند "بوزانكت".

بصدقه وجده وحدبه على الإنسان جاء –وهو مصمم الكبارى المنقطع عن الدراسة الروتينية- مصلحا ثاقب النظر عمليا تنظيميا .

جاء مناقضا لفلاسفة القومية والطبقية جميعا . بسبب نزعته الإنسانية التحررية العامة ، وأرهص للنظرية السياسية التى توصف بأنها الكاملة عند "بوزانكيت" والتى خفنا عليها وحسب من إسناده رسالتها إلى الدولة القومية؛ رغم تطويره النظرى الجميل لمفهوم الدولة القومية كما سيلى.

---

[1] Literary History of England, ed. A.C.B., p. 1115
- مجلة المصور/ عدد ٢٩٩٩، ٤/٢/ ١٩٨٢م، ص٥٨، بقلم أحمد أبو كف.

لرحلة نضال "پين" بين القارتين والثورتين . فى المنصب وفى المحاكمة والسجن ومقاربة الإعدام . بين العِرفان وبين التنكر تفصيل ننزل به إلى الهامش للتركيز على نظريته الأجدر بهذا المتن [1] .

---

[1] - عمل "پين" بعد قطع دراسته فى الثالثة عشرة صانعا وموظفا وجنديا وديبلوماسيا . وقد اخترع الجسور الحديدية واندفع بحماس إنسانى هائل ليؤكد التأليف فى السياسة كذوق عام common Sence وحقوق الإنسانwrites of man وفى العصر كعصر يمتاز بالعقل ويستلزمه Age of Reason .
- وقد تصدى قلمه لداعية الملكية الرجعى "إدموند بيرك" . ورسالة بين فى توزيع الأراضى بالمساواة Agrarian Justice وغيرها قد تضمنت مقولات سبقه إليها غيره ولكنها اشتهرت به وشاعت فى العصر الحديث وتضمنت مبادئه الإصلاحية الكبرى .
- عمل بواسطة 'بنيامين فرنكلين' مديرتحرير لمجلة "فيلاديلفيا" التى نشر فيها آراءه التحررية بمجرد سفره إلى أمريكا سنة ذ٧٧٤م وهى المجلة التى دعا فيها إلى استقلال المستعمرات المريكية عن بريطانا وطنه الرسمى وذلك فى رسالته النارية "الذوق العام".
- و"توماس بين" هو الذى صرح –وقد يكون ذلك لأول مرة فى التاريخ- بأن الملكية تتعارض مع الديموقراطية. وبذوقه التحررى الممتاز هذا طالب بأن يسود فى انجلترا حكم جمهورى ديموقراطى ثم كان لكتاباته وآرائه أكبر الأثر فى حدوث الثورة الأمريكية وقيام الحكم الجمهورى الديموقراطى فيها.
- سافر إلى فرنسا وساهم فى الرد على الاتجاهات التى اتخذت من مظاهر العنف والدم فى الثورة ضد الطبقة المتحكمة القديمة ذريعة لمعارضة الثورة فى عمومها ولاسيما اتجاه "ادموند بيرك" الذى مثل الجمود والارتباك فى البحث .
- وكما يقول الدكتور على عبد المعطى محمد "هو شخصية من أعجب الشخصيات السياسية التى شهرها التاريخ" . لعب دورا بالغ الخطورة فى مجتمعات ثلاثة : انجلترا وفرنسا وأمريكا كما مارس فكرا خصبا فى ثنايا الحوار العميق حول الحرية ؛ فقد " كان يؤكد فى جميع أقواله وكتاباته وفى كل آن ومكان على الاتجاه اللبرالى وحقوق الإنسان فى الحياة وفى الحرية" و "يهاجم الاتجاهات المحافظة والحكومات المونارکية والاتجاهات الاستبدادية فكان بذلك مفكر الحرية والأحرار فى كل مكان (على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، ص ٣٣٧، ٣٣٨).
- "صاغ پين رسالته فى الذوق العام سنة ١٧٧٦م بطريقة أدبية رائعة.. فى عبارات قصيرة ساخرة يسهل على الناس ترديدها فى كل مكان ووضع فى ثناياها فلسفته عن الحرية وضرورة الاستقلال والتحرر الوطنى وما لبثت الرسالة إلا قليلا حتى نفدت طبعتها.. بل أعلن "واشنطن" .. قائد الثورة أن رسالة الذوق العام قد عدلت من آرائه وغيرت من مفاهيمه (وأمر) بأن يطلع عليها جميع أفراد قواته المسلحة.
- لقد ارتفع "پين" فوق وطنيته الإنجليزية الخاصة ؛ بل شارك فى الحروب الأمريكية إلى جوار "واشنطن".. (و) عينته الحكومة الأمريكية كسكرتير للجنة التفاوض مع هنود بنسلفانيا فى يناير ١٧٧٧م وفى .. إبريل.. عين سكرتيرا لمجلس الشئون الخارجية فى الكونجرس حتى يناير ١٧٧٩م حيث اختلف مع المجلس والكونجرس و (لكنه) سرعان ما عين فى مجلس بنسلفانيا.. حتى عام ١٧٨١م" ، "عام سفره إلى فرنسا للتفاوض فى الحصول على أسلحة ومساعدات لأمريكا" (على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، ص)٣٣٩ .
- ويبدو أن جسره الحديدى المنشأ لأول مرة فى انجلترا سنة ١٧٩٠ ليس الجسر الوحيد الذى اخترعه پين ؛ فالواقع أنه هو نفسه قد وصل بين أوروبا وأمريكا كما عبرت أفكاره شتى أصقاع المعمورة .
- يعد "ين" (١٧٣٧- ١٨٠٩) رائداً فى نضاله السياسى أو قدوة كارزمية لعديدين فى الغرب والشرق : قادة التحرير فى الولايات المتحدة ومنهم "'چورج واشنطن" ، وهو ثابت بالمتن .
جماعات مطالبة بالإصلاح وإلغاء السخرة وما إلى ذلك فى الشرق القيصرى ومنهم عنترة أكرانيا الشاعر الفارس الرسام القَـيْن" ترس شفشنكو" (١٨١٤- ١٨٦١)
- السيد جمال الدين الأفغانى فى شرقنا الإسلامى العريض . وقد لحق به إلى الخلود بعد ثمان وثمانين سنة
- وإلا السيد "بلنت" "مستر بلنت" الصديق الأيرلندى للعرابيين وشاعرهم فى اللسان الإنجليزى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر .

نظرية "پين"فى درس على عبد المعطى:

تقوم نظرية پين السياسية على إحساس مرهف بالكرامة الإنسانية التى

- ومن إلى "بلنت" من أحرار الغرب ك" برنارد شو" و"إدوارد لامبير" ؛ فضلا عن الجهاديين الوطنيين المعروفين : البارودى – عرابى- مصطفى كامل- فضلا عن الكارزمية الناصرية نفسها .
"روجيه جارودى" و "چورچ جالوى "وبعض يهود يتظاهرون ويلقون الأذى والعنت لمحض تصريحم بما يجب من رأى فى الإفراط الأمريكى الإسرائيلى والتفريط العربى الشائن هنا أو هناك . من هؤلاء الإنسانيين العظام لأيامنا ثمة أيضا : "چورج فكنشتاين" و"ستيفان سيزار" صاحب كتاب Christian Zionists وغيره من الكتب المصرح بالحق الفلسطينى والتعدى الإسرائيلى ، إلى حد الوصم بالنازية .
ومنهم نساءً منهن : المتعاطفة الأمريكية الشابة 'ريتشيل كورى' شهيدة جرافة الإزالة الإسرائيلية فى غزة " " والأمريكية الحقوقية المؤازرة لغزة وللثورة ضد الانقلاب فى مصر ، الموضوعة على القائمة والمرحلة بالعسف والأذى دون إسعاف لها – منهن كذلك : مقاربة الشيخوخة الحقوقية الشهيرة "ليديا بنجامين" و" بيكى ويلاند" رفيقتا أكثر من ٤٠ امرأة - وقيل ٨٠ - كبراهن فى سن ٨٤ – كما قالت "أوليفيا سيمور"
- منهن أجنبيات وعربيات (تردد اسم جميلة بوحيرد بينهن) .. وقد اعترضتهن السلطات المصرية فى اليوم العالمى للمرأة ٤-٣-٢٠١٤م عن طريقهن لمؤازرة المرأة الفلسطينية المحاصَرة مع شعبها كله فى غزة ؛ بل وحالت بينهن وبين العودة لفندقهن فى القاهرة ، وأمكن ترحيل بعضهن من مطار القاهرة بمساعى السفير الفرنسى ؛ وظل بعضهن معتصمات (الإعلام المصرى ومنه / جريدة الوفد ٧-٣-٢٠١٤م وغيرها) .
اعتقل منهن وحقق بمعسكر اعتقال لـ ٨ ساعات حائزة نوبل "ماجوايا" وزميلة لها . منعت" ماجوايا" من مصر كما منعت قبل من إسرائيل . منعا كمنع حائزة نوبل توكل كرمان من دخول مصر لمؤازرة رابعة . وكهنَّ مع فوارق غادر حائز نوبل زويل غير مستريح وغادر حائز نوبل محمد البرادعى ، متخليا عن منصب نائب رئيس ، مضادا لفاشية العسكر المنقلبين (من فينا لها وعن بعض صحفها مراسلة الجزيرة فاطمة حنفى عبر سكايب – س١٢و٣٠ د. مساء وصباح ٨ و ٩ /٣/٢٠١٤م).
.
- كان شغل "پين" شاغلا بالكوبرى الحديدى الذى اخترعه فى انجلترا وبالثورة الفرنسية . ذهب إلى باريس سنة ١٧٩٠م وقابل "لا فييت" La Fayett أحد قادة ثورتها الذى أراد أن يحمل بين مفتاح الباستيل ليسلمه فى واشنطن قبل أن يعهد بالمهمة إلى صديقه الآخر "فرنون" Vernon .
- وإذ عاد إلى لندن انتزع نفسه من عمله المادى وعكف على نقد بحث "إدموند بيرك" : تأملات فى الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٠م. وقد أورد پين رده فى كتابه : حقوق الإنسان سنة ١٧٩١م . وبالبحث عرف بيرك بأنه ممثل النزعة التى تسمى محافظة فى انجلترا؛ كما عرف بين بكتابه بأنه ممثل الروح التحررية.
- وحينما نظم الراديكاليون حركة تنادى بقلب نظام الحكم المونارکى وتأسيس الجمهورية الديموقراطية فى انجلترا حوكم بين غيابيا ولكنه احتل فى باريس مقعدا اختير له فى عضوية المؤتمر الوطنى فى باريس كما عهد إليه بالمساهمة فى تأسيس الجمهورية والمشاركة فى أعمال المؤتمر الوطنى و "كوميون" باريس. وهو الاختيار ذو الدلالة الإنسانية البالغة لكونه تم بإجماع أربع هيئات فرنسية مختلفة.
- كان تأييد پين للحرية والثورة نابعا من الإيمان وشعور إنسانى صحيح . لذلك لم يتردد فى معارضة "روبسبير" ومخالفة الثوار فى الحكم على "لويس" السادس عشر. فقد راى الاكتفاء بنفيه . وبسبب رأيه ذاك حوكم بواسطة الغلاة وسجن سنة ١٧٩٣م .
- ويبدو أن النزعة الإنسانية البسيطة لم تعدم أنصارا لها بين أصحاب النزعة القومية الفرنسية الغالية ؛ فلم ينفذ فيه حكم الإعدام وكان الفضل لرصيده من النضال فى أمريكا ؛ فقد استصدر وزير أمريكا المقيم فى باريس وهو "چيمس منرو" James Monroe أمرا بالعفو عن بين فأخرج من السجن سنة ١٧٩٤م مريضا.. ليقيم فى پاريس حتى عام ١٨٠٢م ويؤلف رسالتيه عن "عصر العقل" و "عدالة توزيع الأراضى بالمساواة" (على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى،، ص ٣٤١) .
- ويبدو أن أمريكا كانت ما لبثت أن انغمست فى الرأسمالية ولم تعد تطرب للمثاليات الإنسانية (البينية) . فحين هاجر بين إليها سنة ١٨٠٢م لم يلق ترحيبا فأحس بالغربة وساءت صحته وتوفى الرجل ؛ فكان شهيد الحرية فى مواطنها الثلاثة المتاحة لقلمه واتصالاته فى ذلك الوقت . وهو الوقت الذى انتهزته بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا وبزتهم فيه بريطانيا لغصب سلام الشرق وابتزازه كم يهدى البحث.

يناقضها التسلط ضرورة؛ ولذلك رفض پين وراثة الحكم المونارکى : سواء نشأ عن طريق القرعة أو الانتخاب أو التسلط، وفرق بين المجتمع والحكومة فى أصل النشأة.

فالمجتمع ينشأ من المطالب المتبادلة ويحقق سعادته إيجابيا بواسطة توحيد مجهوداتنا . أما الحكومة فوسيلتها فى تحقيق السعادة وسيلة سلبية تقوم على الردع [1]. ومبدأ الوراثة متى جاء(بالمترفين) أو المشردين يخلق جوا كئيبا خانقا.

أما الحكومة المقبولة فى ذوق پين "فهى تلك التى تنظم من تمام الموافقة المتبادلة بين أناس يتمتعون بحالة الحرية الطبيعية State of Natural Liberty على تكوين مجتمع يتعاون فيه الجميع على تحقيق المهام العامة.

وقد حكم پين شعوره المرهف فى ملاحظة سير الحياة فى مراحلها البسيطة فرأى "أنه لم تكن ثمة حاجة لقيام الحكومة فى البداية....لقلة الشئون العامة من جهة ولأن كل فرد يكون مضطرا لأن يفعل ما يجب عليه فعله خوفا من امتهان الجميع له من جهة أخرى".

ولا ينكر پين أن تسيير المجتمع بالضمير وحده يصبح متعذرا مع تعقيد الشئون العامة وتكاثر الأفراد . ومع ذلك فإن العلاج لا يكون بالتسلط وإنما باتفاق الجميع أو تعاقدهم على اختيار هيئة حاكمة تقود المجتمع نحو تحقيق أهدافه وأمانيه وتعمل على تحقيق الحرية وبث الأمن والطمأنينة بين المواطنين.

---

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....، ص ٣٤٢

وينظر Synopsis + Thomas Paine biography فى
http://www.biography.com/people/thomas-paine-9431951?page=1

obeikandi.com

ومن الطبيعى أن يؤدى المنحى الذوقى الشعورى الذى نحاه بين به إلى إطراء الفطرة والطبيعة وإرادة العقل . وفى ضوئها رأى أن أداء الحكومة لمهامها يكون ميسورا ؛ بل إن الفطرة هى التى ترشدنا بنورها فى الأحوال الغامضة والمختلفة . وذلك هو جوهر دعوته فى كتابه "الذوق العام" أ الـ Common Sense .

نفر بين مما سماه "سخف وهراء" الملكية العاطلة (سخف الملكية العاطلة وهراءها) فى انجلترا وضن بأن ينفق عليها من أموال الناس ورأى "أن أى مواطن شريف من مواطنى الدولة هو أحسن فى نظر الله ونظر المجتمع من كل العاطلين المتوجين" [١] .

وقد اختار بين عبارة "حقوق الإنسان" عنوانا لكتابه الذى رد فيه على تأملات "بيرك" الملكى الجامد فى انجلترا التى أنكر فيها أن تكون ثمة حقوق للإنسان وأعلن أن تنازل الشعب لملك أو سلطان سخف أو هراء _ إن طبقه جيل فلا يملك تعديته على جيل آخر لأن الأجيال والأفراد لا يملك بعضها بعضا كما أن الميت لا يملك الحى [٢]. وهى بديهية وافق بين عليها روسو ولكنها غابت عن بيرك.

ويتضح ذوق بين الخاص للحرية بمباينته فلاسفة العقد الاجتماعى ؛ فى أساس فكرة التعاقد : رآها هى تقوم بين طرفين متساويين فى الحقوق والواجبات وأنها لا تسلب بالعقد لأن العقد نفسه يجب أن يجدد من جيل إلى جيل ؛ وبذلك أعطى بين "للديموقراطية مغزى أعمق وحيوية متدفقة كما منح الحياة المتجددة لنظرية الحقوق الطبيعية" "وأبرز أهمية التمسك بالإرادة الشعبية المعاصرة وبأن الدولة قامت من أجل الإنسان وليس العكس" [٣] .

لم يكن بين أكاديميا متقعرا فى علوم السياسة ولكنه كان مفكرا واسع

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....، ص ٣٤٤
[٢] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....،ص ٣٤٥
[٣] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....،ص ٣٥٠

الشهرة عميق النفوذ بل فاق نفوذه النظرى نفوذ أعظم الأساتذة ثقافة وعلما [١] . وما الذى جاء به من فتوح فى مجال الفكر والقيمة إلا ما طال دوران العلماء حوله وأدركه هذا المنقطع عن المدرسة.

والذى حدا بنا إلى عد پين فى الاتجاه الإنسانى فى الفكر والحكم هو تصديق الشواهد لحدوسه الفطرية من قبله ومن بعده.

وقد رأينا ثبات الفكر الرواقى والحنيفى والدينى على الاعتبار بالفطرة وموازين العقل بصفة عامة

وكذلك الشأن فى قول پين بتفضيل العامل على المتوج القاعد .

وهى قيمة شق بها الإسلام ظلام العصور الوسطى بل بلغ بها القمة فى تفضيل العامل الصالح على الفارغ للعبادة.

ونفرة پين من التوريث فى الحكم تكاد تشى بمستعار عرابى بعد بين من تراث سابق عليهما معا ينسب إلى عمر بن الخطاب ؛ وثلاثتهم تكلم وهو شاخص ببصره إلى أول إنسان.

فلا غرو أن اقتبس الناس عبارات پين ورددوها وكأنها فقرات من الإنجيل ونظمتها الإنسانية فى إعلانها العالمى لحقوق الإنسان بعد الحرب العالمية الثانية [٢] .

فالإنسانية – التى طال هامشنا فيها بدورها هنا - عاطفة غالبة على وجدان پين؛ لولا أنه يبدو أن المادية ستكرس للنفعية ولإدموند بيرك ، ريثما يلتقط المذهب الإنسانى الشعورى الأخلاقى أنفاسه ويشرئب لأنسنة الحياة بلا حيلة غير الفن عند الرومانسيين وبفلسفة متأرجحة عند جدوين

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....،ص ٣٤٩

[٢] الإعلان وسائر الوثائق المتعلقة بحقوق الإنسان : حقيبة تنزيلات من موقعkenanaonline.com ، على موقعنا منه /kenanaonline.com/users/hakim

و حظِينا بها مكتملة -إن لم نقل تامة- عند بوزانكت كما سيتبع [1].

---

[1] **الإنسانية - الإنسية - إنسانى:**
الأصل اللغوى (أ ن س) فى المعجم الكبير يدل على ١- الظهور . ٢- السكون إلى الشىء والاطمئنان إليه : و الإنس (والأنس) : الطمأنينة . وتأنس فلان : اطمأن وزالت عنه وحشته والآنس : المؤنس أو ذو الأنس والآنسة فتاة آنسة : طيبة النفس .
- وفى المعجم الكبير أيضا : الإنسان : حيوان يسير على رجلين منتصب القامة عاقل مفكر بوزن (فِعلان) من الأنس أو هو إنسيان من النسيان ؛ وعلى النقص صار إنسان فوزن على (إفعان) ولذلك يرد إلى أصله فى التصغير فيقال أنيسيان . .
الإنسان Man عند المناطقة والماديين والفلاسفة : عند المناطقة هو نوع والحيوان جنس . عرفه الماديون بأنه جسم له أبعاض وصور واحتياجات ، ويمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وأن المشار إليه فى أنا أكلت وشربت ومرضت وخرجت ودخلت وأمثالها ليس إلا هذا الجسم أو الهيكل المخصوص .
وقال جمهور الفلاسفة إن الإنسان حيوان ناطق ، ولكنه ليس إنسانا بأنه حيوان أو ناطق أو مائت أو بأى شىء آخر ؛ بل بأنه - مع حيوانيته - ناطق (ابن سينا – نجاة) . ويحتاج أن يكون جوهرا ويكون له امتداد فى أبعاض... وأن يكون - مع ذلك- ذا نفس .. يحتذى بها ويحس ويتحرك بالإرادة ..
عند علماء الشريعة : هو جنس نوعاه رجل وامرأة . وقال الإلـٰهيون إن الإنسان لا يمكن أن يكون بدنا ؛ بل هو هذا المعنى القائم بالبدن ولا مدخل للبدن فى مسماه .. إنه الإنسانية المقومة لهذا الهيكل (أبو البقاء) .
والإنسان الكامل الحقيقى عند الصوفية فى المعجم الفلسى هو الجامع لجميع العوالم الإلـٰهية والكونية والجزئية .. والإنسان عالم صغير والعالم عالم كبير. : متفقا مع المعجم الكبير فى أنه يراد به أن من الناس من تكمل إنسانيته فيسمو فى رأيهم إلى الاتحاد بالذات العلية ويصبح خليفة الله فى أرضه وله أصول فيما قيل قديما وذكر توا ، شبيها من جهة ومختلفا من جهة عن المعروف من مذهبية وحدة الوجود السقراطية الـ Panti Socratism .
الإنسية Humanism أو الإنسانية : أيديولوچية راجت فى إيطاليا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر وامتدت منها إلى بقية بُلدان أوروبا الغربية ، وتمثلت فى العودة إلى الثقافة القديمة باعتبارها ثقافة مركزها الإنسان وكرامته وحريته وقيمته . هى أيضا كل دعوة لها نفس الموضوع . والمفكر الإنسى أو الإنسانى هو الذواقة للتراث والذى يستلهمه .
والإنسية عند كونت ديانة تقدس الإنسان وتحل الإنسانية محل الله فى العبادة ؛ ولعلها بهذه المناقضة الحادة بما هو سام أو ميتافيزيقى ؛ وبمضادتها للتيار الإنسانى المثالى أيضا تعنى مجرد "البشرية" العلمانية التى قامت عليها الدول القومية فى أوروبا مجتبة الكنيسة ؛ بل مشيعة إطلاقه على فكر عصر النهضة كله : السياسى والعلمى والتجارى .
- والعلمنة secularization : عملية تطوير المجتمع سياسيا واقتصاديا بالعمل من أجل الإنسان وبجهده وقد لا تعنى اعتناق نظرية علمانية secularism بذاتها تستبعد الدين / عن الحوار بين الإديان / د. وليم سليمان ص ١٨٨ ، عن Twards comparative study of secularization in ; Chrristian and Islamic Ali descuky ١٩٧١, May ٢experience , Dans, Islam and the modern age , vol. .II mo فيما سبق (أول الفصل الثانى بهذا الباب)
- بيد أن الألوهية قيمة حتى فى الفكر الأُنطُولُوچى Ontologism المقدم للوجود الطبيعى على الفكر . بدأ كمذهب إيطالى ١٨٥١م . تبحث الأُنطولوچية فى الوجود فى ذاته (لالاند) ، ، يرى هذا ويقابله المذهب النفسى الذى يقرر أن الوجود تابع للفكر . ويرى المذهب الأُنطولوجى أيضا أن الموجود المطلق أى الله هو المعيار الذى يستند إليه العقل فى الحكم على الموجود واللاوجود ؛ أو هو من يرى أن معرفتنا بالله حدسية مباشرة ، ومن قبيل ذلك نظرية رؤية الله عند مالبرانش (فوكيه) .
نظرية الهيومانية (الإنسانية بالاسم فقط فى تقديرنا) فى بنائها المغرى عند "ارفنج بابيت" وزملائه فى عرضنا عن المرحوم لويس عوض على الأقل؟
الإنسانية عند بوزنكيت : قمة جهاد إنسانى مفكر فى تيار إنسانى للحضارة تتبعناه دائرا على فكرتى الفطرة والاستنارة فى التاريخين التربوى والسياسى ، مرورا بالحركات التالية :

أما الآن فوقفتان على "النفعية" فـ "جدوين":

النفعية والنفعيون:

كما مر كان "إدموند بيرك" الملكى الجامد **(١٦٢٩- ١٧٩٦م)**- تقاطعا مع الفلتة الإنسانية عند پين**(١٧٣٧- ١٨٠٩م)**-: تمهيدا للنفعية . وقد كان "چرمى بنتام" Jermy Bentham قد فرغ من التعبيرعنها فى شىء من الغموض adumbrated it فى "وريقة فى الحكومة" Fragment on Government ١٧٧٦م ؛ فجاء جدوين وقال إنه لا يلزم إلا أن يخلق المناخ الصحيح للتعليم السديد وسوف يصبح ممكنا تحقيق تطور غير محدود يسير فى الاتجاه الصحيح. سيلى أن جدوين تحير بين الجمود والمذهبية والتحرر المفرط وبين الرومنسية واليوتوبية .

أما النفعية فى أفقها الواضح فمذهب يُنْسَبُ جانب مهم منه إلي "بِنثام" و "چيمس مل" و "چون استيوارت مل" . هذا الجانب هو قولهم "بأخلاق المنفعة Morales de L` intret .

- **المفهوم السلبى المحدود للفطرة عند ماكيا فيللى وهوبز** (١٤٦٩- ١٥٢٧) – ١٥١٨- ١٦٧٩) ؛ ومثلها **اللايوتوبيا diutupea** دولة الدكتاتورية المطلقة (الأوروبلية) نسبة إلى صاحب رواية ١٩٨٤
- **المفهوم الإسلامى والحنيفى للفطرة** السليمة .
- **المفهوم الرواقى** فى حوض المتوسط (اليوتوپيا) / شيشيرون وسينكا مثلا (١٠٦- ٤٣قم)- ٤- ٦٥ قم)
- **چان چاك روسو** (١٧١٢- ١٧٧٨) والتربية الطبيعية
- **الرومانسيون ووحدة الوجود**
- **حكمة العفاف عند جدوين** (١٧٥٦- ١٨٣٦) من النفعيين .
- **احرية الطبيعية عند پين** (١٧٣٧- ١٨٥٩) واستيحاء الإعلان العالمى لحقوق الإنسان من بعض فكره . وفى هامش توماس پين الإنسانيون العظام الماثلون فى الحق الفلسطينى وغيره .
- **مذهب الحاسة الخلقية (من تجريبية ديڤيد هيوم ١٧١١- ١٧٧٢)** إلى أعلام المذهب (هتشيسون وسانتسبرى)
- **الحرية المتحضرة أو عقل المجموع (برنارد بوزامكيت (١٨٤٨- ١٩٢٣)** ؛ "يولد الإنسان حرا حرية حقيقية- فكرة التسامح- أهداف تنظيم الحياة بحيث تبوح بما فى سرها من الخير الروحى (الذى) هو وحده الحقيقى والدائم
- **وفى الأدب** ربما أطلق على شاعر قين ثائر عزيز النفس كعنترة العبسى أو ترس شيفشنكو الأكرانى أنه "شاعر الإنسانية" . والأخير - على سبيل المثال - فضلا عن جنديته وشاعريته الفياضة كان فنانا عظيما وديموقراطيا ثوريا تتشبع أعماله – مثل عنترة حقا – بالمثاليات الإنسانية ، وكلاهما تغلب على جميع العقبات وأقساها العبودية فى مجتمعه ، غير متنكر لقومه ووطنه .

والنفعيون The Utilitarians يقولون"إن المنفعة هى تحقيق السعادة فى ظروف أكثر تقدما ولذلك يؤكد علم الأخلاق النفعى على الرفاهية والرضى مع ضرورة العمل الدائب نحو حياة أفضل. وتلك هى المثالية النفعية التى تحقق ما هو مرغوب فيه . فالمثل التى يعتنقها "مل" هى مثل علمية وواقعية تجعله لا يحوم فى عوالم غير قائمة.. بل يقف على أرضية ثابتة يكتسب منها الخبرة (بـ) المحاولة والخطأ فيتعلم منها وتتكون شخصيته فيعرف قيمة العمل والنجاح حيث إن التجربة عند النفعى هى محك الصواب والخطأ ومصدر الاستحسان والاستهجان . والجزاء الخلقى.. هو ما ينجم عن الفعل من فشل أو ألم وما يعقبه من إحساسات التعاسة والندم.. و.. واتفقوا جميعا على أن اللذة هى المعيار النهائى الذى نقيس به القيمة الأخلاقية".
ولهم بعض مبادئ حسنة ولا جديد فيها كقولهم:
"عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.."
و "أحب جارك كما تحب نفسك"
ومن تعاليمهم فى التربية: "تعليم النافع المفيد حتى تكون للعملية التربوية جدواها". [1]

وليام جودوين(١٧٥٦- ١٨٣٦م) (نفعى بين العقل وبين الشعور):
فى انجلترا نفسها أضيف إلى ما ذكرنا من عوامل التطرف والجمود فيها وفى فرنسا عامل آخر أتى الدعوة الإصلاحية الإنسانية من داخلها حيث بدت عند "وليام جودوين William Godwin مختلطة فوضوية . ربما بسبب بداياته الانتقادية المتبرمة قبل أن يستقر – أو بالأحرى يتأرجح- فى موقعه بين مذهبى "الحاسة الخلقية" والمدرسة "النفعية" الناضجة.

فخلافا لما درج عليه جودوين "من نقد للعيوب فى مجتمعه نفسه عاد يدعو إلى التفاؤل المبنى على الثقة فى العقل. كتب فى سنة ١٧٧١م رسالته فى العدالة السياسية Justice Political وطبعها سنة ١٧٧٣م و "هى فى نقد المجتمع القائم والتنبؤ بالمستقبل"؛ ولكنه سرعان ما انتقل

[1] قبارى محمد اسماعيل/ قضايا علم الأخلاق، هـ ص ٢٩، ٣٠ ، عن \John Stewart Mill Utilitarianism, Colins 1964>

بعيدا عن نفسه فيها.

وبدلا من نظريته "التحليلية [١] الباردة هذه فى العدالة السياسية جاءت كتبه المتأخرة فى المقابل طبيعية عاطفية . وكذلكم الحال فى النشاط السياسى الاجتماعى المنظم .

فرغم اتصال الراديكالية البريطانية بالثورة الفرنسية فإن الجمعيات البريطانية(السياسية) لم تكن تنتظم على أشباه فرنسية؛ وما لبثت جمعية أصدقاء الشعب The Friends of The People التى أنشئت سنة ١٧٩١م أن اعتدلت فى برنامجها الإصلاحى ؛ كما أن جمعية لندن الوفاقية The London Corresponding Society المؤسسة سنة ١٧٧٢م والتى تفرعت فى جميع أنحاء البلاد : قد لحقت بها ؛ حيث أدت حوادث الثورة الفرنسية العنيفة سنة ١٧٩٢م إلى تعزيز الرجعية فى بريطانيا [٢] .

ولعل هذا الجمود نفسه كان حافزا لثورية البعض ممن نظمناهم مع الرومنسيين كـ "توماس بين" ومن ثم لنظريات العقد الاجتماعى أو غيرها؛ وربما لجودوين نفسه فيما تلا من تحولاته هو نفسه.

وقد شارك جودوين غيره من الراديكاليين فى الثقة فى العقل . تجاهل العيوب التى سبق أن نقدها فى المجتمع ذاته وقال بأن الحق يجب أن ينتشر لأن الجدليات التى تؤيده هى بطبيعة الحال أقوى من تلك التى تؤيد الباطل. فالحق قاطع بالحق الكامن فى ذاته . أما الرذيلة فإنها خطأ فى الحكم.
ولقد اصطنع جودوين تفسيرا شعوريا لنظرية "لوك" (١٧٠٤م) فى المعرفة وآمن مع أصحاب مذهب الحاسة الخلقية انه يمكن إصلاح الأحكام التى أفسدتها العاطفة والجهل بواسطة التربية والتعليم لأن التعليم يستطيع أن يجعل الفرد يطوع مصالحه الخاصة للخير العام. هذا على

---

[١] Literary History of England, p. 1114
[٢] Literary History of England, p. 1114

الرغم من أن العقل الإنسانى – شأنه شأن العالم الفيزيقى- خاضع للضرورة (أو التتابع الحتمى بين السبب والأثر) وعلى الرغم من أن الدافع الأساسى للروحانية هو أيضا الرغبة فى تحقيق اللذة وتجنب الألم. [١]

▲ذلك الاهتمام المصلحى الذاتى المستنير فى أفقه الروحى يوافق القول بإرادة الأغلبية فى الأفق السياسى كما يشير إلى ما سار به النفعيون قدما من الآراء.

وفى رأى جدوين "فإن العقل وليس القانون هو الذى يصون التوازن الاجتماعى فى مجتمع أحسن تنظيمه وإن الرجال سوف يكونون فى غير حاجة إلى الضبط السياسى وأن الحكومة سوف تعول إلى حد أدنى أو تختفى جملة" [٢]

وأما رأى جدوين فى الملكية والنساء فهو أن نظام الملكية الخاصة عنده لن يدمر بيد أن الناس فى رأيه سيصبحون من العقل لدرجة أنهم لن يدعوا لأنفسهم شيئا غير أنصبتهم القسط. أما الزواج وهو بصورته فى نظر جدوين شكل من أشكال الطغيان فإنه سوف يختفى . أما قانون العقوبات وغيره من التواضعات الاجتماعية فإنها "سوف تجدد" .

▲لهذا رأى المؤرخون الانجليز أنه فى آراء جدوين هذه يصعب التفرقة

---

[١] صدر "مذهب الحاسة الخلقية .. عن تجريبية ديفيد هيوم"
. ومن أعلامه: هاتشيسون و سانتسبرى ؛ فجمعوا بين الضمير والشعور او الوجدان وأكدوا على أن حب الخير benevolence هو المبدأ الخلقى الأسمى فى الإنسان ووظيفة الحاسة الخلقية عندهم هى إدراك خيرية الأفعال وشريتها . وهى قوة باطنية تشبه الإحساس بالجمال وأحكامها لا تحتمل التحليل أو البرهان ؛ بمعنى أن الحاسة الخلقية إنما تقوم على حدس حسى أو تجريبى .
وحاول أعلام مدرسة الحاسة الخلقية أن يوفقوا بذلك بين النفعية والأنانية من جهة وبين الأخلاق الغيرية من جهة أخرى بإزالة التعارض بين ميول الإنسان النفعية وحبه الفطرى للعيش مع الآخرين ورعايتهم واحترام مصالحهم.
وأكدوا على ان الواجب الاجتماعى لا يتعارض مع حب الذات وحرص الإنسان على مصالحه حيث إن الأنانية والعزلة شقاء وبلاء . أما الخير فهو العمل من أجل التضامن لصالح المجموع.
قبارى محمد اسماعيل/ قضايا علم الأخلاق، هـ ص ٣٠ ؛ عن : Broad, C. D. \ Five Types Ethical Theory, Kogan Paul, 1944. p. 44, 85

[٢] Literary History of England, p. 1113

بين نظريته فى الحكومة وبين الفوضى المحضة . وكذلك وصفوا نظراته هذه بأنها نظرة يوتوبية utopian ولكنهم فرقوا بينها وبين دعوة "العودة إلى الطبيعة" التى فهمها المفسرون الإنجليز عن تعاليم روسو لأن ما أعلنه جودوين إنما هو "حكمة العفاف" وليس "الجهل البرىء".

الرومنسيون(منتصف ق ١٩):

ربما جاز ولو مجازا عد الرومنسية وما إليها فى القرون الحديثة بمثابة أو من قبيل اليوتوبيات الروقية اليونانية القديمة فى حوض المتوسط؛ إذ تعتبر الآداب الرومنسية بما اتسمت به من روح إعلائية أو يوتوبية إنسانية عامة وكذا المناشط العلمية البحتة الوجه المقابل لدعاوى الغلواء القومية والنزوع إلى التسيد والاستئثار .

قدرت الفترة الرومنتيكية بـ ٤٣ سنة . ربما بدءا من ظهور أغانى "بليك" William Blake البريئة إلى موت السير "والتر سكوت" Walter Scott . "وقد تسمى بفترة ما قبل الفيكتورية" لموقعها التاريخى ولمرورها بمرحلة الثورة الاقتصادية والحروب النابوليونية أو فترة التسيد الاستعمارى dominance فى أواسط القرن التاسع عشر .

لكن الرومنسيين الذين برعوا فى الإنشاد والتقنين للمجردات الجمالية والإنسانية لم يسعفوا المجتمع بنظام أو مؤلف يفى بحق جمهوريتهم اليوتوبية فى البقاء الواجب لها.

- لذلك فإنه عندما اخترع كل من "سوثى" Southey و "كولاردج" مجتمعهما . مجتمع "وحدة الوجود السقراطى Panti Socratic وهو المجتمع اليوتوبى الذى ترجع فيه المعرفة الإنسانية إلى التركيب السيكولوجى للعقول (أو القوانين العقلية الأساسية) التى لها ما يوازيها فى حركة الكون [١] ؛ كما فيما مر من درس الرواقية . عندما اخترعا عالمهما اليوتوبى متأثرين بالعدالة السياسية فإنهما قد كانا فى ريب من إمكانهما إعادة بناء عقليهما الذين كانا قد غلفا بالفعل بالتعليم الخاطئ ؛ غير أنهما خططا للأجيال التالية مجالا تسد فيه ذرائع(فرص) الشر ولا يسمح فيه إلا بالمشاعر الصحيحة أن تؤثر فى العقل.

ورغم أن هذين الشاعرين وكذلكم "وردزورث" Wordsworth ذهبا

[١] حلمى على مرزوق- دراسات فى الأدب والنقد.....ص ١٢٤

بعيدا عن أفكار جدوين فى العدالة السياسية (والتى تجاوزها جدوين نفسه متحيرا كما تبينا) كما لم يخضعا مشاعرهما على الأقل لما شهده الحراك الإنسانى من جمود(رجعية) فى بريطانيا خاصة بينما الثورة تعصف فى فرنسا وأمريكا وغيرهما.

النظرية السياسية الكاملة عند بوزانكت (- ١٩٢٣م)

*سبقنتُ – وبسلطة دراسات رأسية من مثل العقاد وخبرتى التراثية للعرب الجاهليين وغير المعدوم من صكوك السلطة الدينية الشعبية الملزمة للحكام فى الأعصار الإسلامية على تفاوتها - إلى تقييد رأي "بوزانكت" ورأى "أوليرى" وغيرهما فى التشريعات والسياسة اليونانية بتحديد أمدهما أو قيمتهما بحدود الشروط الطبقية والمادية والعرقية فى اسبرطة وأثينا حتى فى فكر أرسطو نفسه.

*وأجد فى هذا السياق نفسه من الدرس الرأسى للدكتورعلى عبد المعطى ما يضطرنى إلى عدم الإغضاء عن عيب عهدة بوزانكت أمانة حمل نظريته القيمة حقا للدوله القومية التى عرفنا أنها ذاتها الاستعمارية ؛ حيث – لولا تصحيحه الذى يرد لمفهوم الدولة القومية – كاد يعرَّض هذه النظرية برمتها للحاق بمزعم نظرية الهيومانية (الإنسانية بالاسم فقط) فى بنائها المغرى عند "ارفنج بابيت" وزملائه [١] فى عرضنا عن المرحوم لويس عوض [٢] .

*أما اعتبارى المتواضع لـ"بوزانكت" فى الكُتاب الإنسانيين فلفضله الذى شهدت به الدراسة الرأسية للدكتورعلى عبد المعطى المتخذة تكئة لمداخلتى هنا: وهو فضل مراجعة الآراء الفلسفية السياسية والاجتماعية المختلفة على مر العصور؛ و لتحريره النظرة إلى الإنسان فى مجتمعه

---

[١] "بول آرمر مور" و "نورمان فورستر" و "استيوارت شيرمان" و "هيدون كلارك" الذين ناصبوا فيها العداء للعاطفة وللديموقراطية وللعلم مقترحين: ما لا غنى عنه لعين هذه الأشياء نفسها مما سموه: "الأخذ بمبدأ القبول" – "العمل بقانون الحساب" – لتحقيق "العيش المتوازن" و "مراعاة الذوق العام" لتقوية روح "الجنتل مان" و "الدين" (التى كان يدعو إليها بيرك) و "الابتكار الفردى" و "صفة البنيان التى تأتى من إخضاع التفرد .. لكل أعم وأشمل"

[٢] عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، دكتوراه بآداب الإسكندرية ١٩٨٥م، ص ٢٨٤

من النزعة الفردية النفعية بالمعنى المشكو منه؛ دون أن يغلو فى الوقت نفسه غلو الاتجاهات الجمعية الهيستيرية المنعكسة عنها.

- قرر بوزانكت أن وقت اعتبار انبثاق قيمة الدولة وانبثاقها من الأفراد قد انقضى وولى [١] ؛ بل إن التعبيرات مثل "فى ذاته" و "من أجل ذاته" لا تكون ذات معنى حقيقى إلا فى موضعها وعلاقتها بالكل [٢] . وكذلك عقول الأفراد حيث تتفاعل وتترابط معا فينتج عن هذا الترابط بين أنماط العقول خير المجتمع. وكذا الحال فى كل جماعة من الأفراد سواء أكانوا سياسيين أم عسكريين أو عمالا؛ فالمجتمع يتكون أساسا من عمل هذه الأنماط من العقول مجتمعة ومترابطة [٣] .
- بل يصبح العقل الفردى نفسه مرآة للمجتمع كله أو انطباعا به من زاوية خاصة فكأنه أقرب إلى جوهر فكرة "ليبنز" التى تقرر أن كل "موناد" مرآة تعكس العالم من زاويتها [٤] .

* قد تعنى (مونادية) المعرفة هنا ضمنا معنى نسبية المعرفة كما صورها أبو حيان التوحيدى فيلاً يتحسس مواضع مختلفة منه عدد من العُميان لا يعرفون مقدما أنه فيل.

* وقد لا تخفى فى ذات الرأى فكرة تشابه المبدعين بوحدة "الجنس" و "البيئة" و "المجتمع" عند "تين"[٥] وفى بعض قول نورده لابن رشد فى "وحدة العقول".

*وكل من بوزانكت وليبنز يجريان على قول "عمانويل كانط" فى قصر البحث المجدى على الظاهرة Phenomena دون الـ nomina أو الرأى الحنيفى أو الإسلامى المعروف "العوارض" دون "الكنه"

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م، ص١٤
[٢] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤١٥
[٣] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤١٧
[٤] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤١٨
[٥] Hippolyte Adolf Taine (1828- 1893) عن The Encyclopedia Britannica, د/ عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، دكتوراه بآداب الإسكندرية ١٩٨٥م، ص ٧١- ٧٣

كما أوردنا صدد محمد عبده بالباب الرابع.

- أما كيف يكون كل عقل مرآة لمجتمعه : فليس الأمر عند "بوزانكت" - كما قرر "لوك" و "هيوم" من أن العقل يولد مع الإنسان كصفحة بيضاء ينقش عليها كل شىء عن طريق الحواس والتجربة
- وليس كما يقرر "ديكارت" والعقليون : أن الإنسان يولد وعقله مزود فطريا بالمعارف
- بل ليس الأمر جماعا من هذا وذاك بمعنى أن المعارف فطرة فى العقل بالقوة تثيرها المثيرات التجريبية فتخرجها إلى الفعل
- ولكن (لأن العقل الفردى بمعنى "فى ذاته" لا معنى له من حيث المبدأ إلا فى إطار جميع العقول وفقا لفلسفته المثالية) التى تقضى بأن "الحقيقة هى الكل وأن الجزء لا معنى له إلا فى هذا الإطار الكلى العام" [١] .

- من ثم رفض بوزانكت ما سرى فى الفكر الإنسانى من بعد اليونان إلى عصر الدولة القومية الحديثة من انصباب نظرة الناس إلى الحياة والسلوك فى قالب نظرية أخلاقية مرتبطة بالدين وباللاهوت وبالتشريع جعلت الفرد داخل هذه الدائرة الأخلاقية والدينية يطلب الحياة التى تحقق له الرضا بغض النظر عن المجتمع الإنسانى [٢] .

- وفى محاولته لاقتلاع جذور النظرة الفردية من أرض الفكر عرض بوزانكت ونقد الأفكار السياسية لـ "چون استيوارت مل" و "هربرت سبنسر" و "بنتام" فوصف نظرياتهم بأنها نظريات "الوهلة الأولى" لأنها فى تركيزها على الفردية Individualism تخلفت حتى عن الركب الإغريقى.

- إنها نظريات نظرت إلى الإنسان وهو فى حياته العادية يأكل ويسير ويسافر ويتكبد مشاق السفر وليست نظريات تنظر فى المنطق الاجتماعى أو التاريخ الروحى أو الخط الروحى الذى يقف وراءه.

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤١٩
[٢] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤١٩

- لذلك أطرى بوزانكت روسو فى عقده الاجتماعى وسائر آرائه لما تخلل فكره من الروح "الكلية".
- فالمجتمع عنده يتكون من الذات العامة التى تتمتع بالإرادة وبالحياة التى تنبثق وتمارس خلال المجتمع من حيث هو كذلك أو خلال الأفراد فى المجتمع من حيث هم كذلك [١] .
- فإنسان عنده يتبع الإرادة العامة لا منفعته الخاصة وبذلك صار الإنسان الذى يكون الدولة هو الإنسان الأخلاقى الذى تتغلغل فيه إرادة العامة وترتفع فرديته الأصلية فترتبط بالكل العضوى إلى أن تبلغ حد الوحدة مع الكل الاجتماعى.

- يولدالإنسان حرا حرية حقيقية كحرية الحيوان ولكنه يرتفع بالقانون الاجتماعى ليصل إلى الحرية المتحضرة التى بها يكتسب إرادته الإنسانية الحقة بمعنى الإرادة العامة General Will لا مجرد إرادة المجموع The Will of All التى هى إرادة إحصائية كأصوات الناخبين.

- كذلك تناول بوزانكت مفهوم "روسو" للحرية بعد تناوله لمفهومه السابق عن الإرادة. ففرقٌ عنده بين مفهوم الحرية الطبيعية ؛ والحرية المتحضرة لأن الأخيرة هى الحرية العاقلة .

- من ثم أحل بوزانكت للدولة أن تقوم بمهمة تحرير الذات العاقلة من أغلالها التجريبية بوسائل القسر السياسى؛ أى أن على الدولة سلك هذه الذات بنظام فى الجهاز ليعمل كالجيش الذى يختلف التنظيم فيه عن مجرد الحشد [٢] .

*والذى أكسب هذه الفلسفة (الروسية/ البوزنكيتية قيمتها الإنسانية فى نظرى هو من عين ما رفع فى نظرى مع على عبد المعطى من فلسفة "بين" . أعده سبب اقترابهما من ذوق الأدب: وجدانا كاملا من عقل

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤٢١
[٢] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ص ٤٢٤، ٤٢٥

وذوق وشعور. وفى تعبير الدارس المتخصص (العمدة) هو نزوعها على تحقيق الحياة الأحسن من زاوية (عقلية ومعنوية وشعورية)؛ وأنها تبشر بتحقيق الأحسن عن طريق الشعور: وسيط كل الإشباعات والنمط الوحيد للكل فى الخبرة.
-وعلى هذا النحو تكون الحياة الحقيقية متحققة فى الشعور .

-*لقد اقترب الفكر السياسى الفلسفى المجرد هنا من ذوق الأدب بمعناه الإنسانى : "ذلك الذى يستطيع أن يتمثل هذه الحياة وأن يتذوقها وهو فى تيار الخبرة الجارف وسط معترك الحياة المترابطة والكلية" [١].

*(وقد استعرضت المفاهيم المتعددة لـ "الإنسانية" بما يجلى هذا المفهوم بخصوصه فى هامش طال على توماس بين منذ قليل) .

- والقسر الذى أجازه بوزانكت للدولة قسر لا كراهية فيه لأنه قسر يُرَدُّ فيه الإنسان إلى نفسه المنتظمة فى الشعور العام . وبهذا المفهوم الإنسانى للقسر الاجتماعى فرق بين العقوبة من حيث كونها إصلاحية Punishment as Reformatory تنظر على الفرد المخطئ كما تنظر إلى المريض الذى يحتاج إلى علاج؛ والعقوبة من حيث هى جزائية أو معوقة Retributory or Deterrent [٢] .

*بهذا يقف البشر فى أمر العقوبة عند حد الضرورة وعلى قدرها ؛ مما ينظر فيه اسلاميا مثلا تحت مصطلح "تقييد الفتك" وما إليه [٣] .

- وفى ضوء ما أعاد بوزانكت اكتشافه من قيمة الشعور الإنسانى فى التجربة الإنسانية صحح مفهوم الدولة القومية كما أومأنا ؛ إذ فسرها كما فسر العائلة والملكية الجيدة والإنسانية العامة.

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ص ٤٢٧
[٢] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤٣٠
[٣] أبو العلاء المعرى / رسالة الصاهل والشاحج ، تحقيق عائشة عبد الرحمن، ط دار المعارف بمصر١٩٧٥م ، ص ٢٦٨، ٣٢١
- وآى القرآن الكريم والمظان العديدة.

- بإدخالنا القبيلة فى العد إلى جانب الدولة القومية و العائلة و الملكية الجيدة (وهى من مستحيلات "بين" كما سبق) و الإنسانية العامة (عد بوزانكت أربعته نظما عقلية أخلاقية.
- أعتبر "الإنسانية العامة" (لو لم تختلط بمساوئ عولمتنا اليوم) البعد الخامس أو البنيوى الكامل للبشرية الذى قصرت عنه فلسفات القوة والتمييز ؛ ولم نكن نجدها غالبا إلا يوتوبيا أو أحلاما واعية لدى الرواقيين والحنفاء والمسلمين الأوائل .

وجديد على الفكر القومى الأوروبى بلا ريب ما أراده ونص عليه بوزانكت من قوله بارتفاع الإنسانية فوق مستوى الدولة ويجب أن تظهر عليها لكى تسيطر وتجمع الأغراض والإمكانات المتعلقة بالحياة الإنسانية قاطبة وتصورها فى ضوء "قانون يفسر الوقائع الأدنى كمالا وارتباطا بواسطة وقائع أكثر كمالا وارتباطا" [1] .

- وتلك إنسانية أعم وأشمل وأكثر ارتباطا وعقلانية من هذا المجتمع أو ذاك . إنها الإنسانية بالمعنى الأدبى كما بينا . وفى ضوئها أرانا بوزانكت أن الدولة لم تعد نهاية المطاف: سواء بمفهومها الفردى عند هيجل؛ أو بمفهومها الطبقى عند ماركس؛ (وأضيف؛: أو بمفهومها المصلحى عند "بيرك" نظريا و "تشرشل" عمليا.

- بل صار هدف الحركة الدائبة فى الاجتماع الإنسانى إزالة التناقض على نحو آخر لأنها حركة روحية أو دياليكتيك : لا هيجلية ولا ماركسية (ولا بيركية) ؛ لأنها فى انتقالها فى متوالياتها (الخمسة الآن) "تنفتح على المجتمع بالفن والدين والفلسفة" . وهى أى الفلسفة "دم المجتمع" كما يسميها بوزانكت. [2]

* لقد اتسمت فلسفة بوزانكت بين الفلسفات بسمة التسامح Tolerance

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٢٩٣
[2] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤٣٤

كما اتسمت بالشعورية ؛ فجاز لنا عدها فلسفة إنسانية (لا بمجرد المعنى العلمانى الذى يقابل الإنسانى بالكنسى أو الدينى) ولكن بالمعنى الشعورى الوجدانى الأيقونى الأبعاد الذى نقصده فى هذا السياق . وكفى بالبوزنكيتية بِرا بالإنسانية أنها تحذرها من أن تستنفد نفسها فى أهداف أرضية ومادية لأن هذه الأهداف وهمية وخطرة وهى أساس كل النزاع .

- ▲أما أهداف الاجتماع والإنتاج الواجبة عند عند "بوزانكت" فهى: تنظيم الحياة بحيث تبوح بما فى سرها من "الخير الروح" الذى "هو وحده الحقيقى والدائم" [1] .

*فى ضوء الجارى اليوم: هل نجافى القصد إذا قلنا أن نظام بوزنكت الممتاز هذا وطموح الرومانسيين واليوتوبيين عالا عمليا إلى برجماتيات غير محضة لأنها فى صورة العالم اليوم – وإن لم نعدها ماكيافيلليات طبق الأصل- ما تزال نهز الدول الكبرى على تفاوت فى الكم أو الدرجة ؟

*بسبب ذلك خبت صورة الوجه الحضارى الباهر للغرب ولمنظمات الأمم المتحدة و العولمة التى يقترحها للعالم نظريا ؛ ولا يظهر منها إلا سلوكيات القرَم التجارى والتوسع الهيمنى الذى جدد حروب البداوة وقنص الغابة فى عصور البخار والكهرباء والطيران والحاسوب وغزو الفضاء وزادته الحيل التقنية المتطورة ضراوة وإمعانا..

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م،ص ٤٣٨